# ٤ ـ المشكلة

تتمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

---

صاحبُ هذه المشكلة رجلٌ أعورُ العقل .... يرى عقلُه من ناحية واحدة ، فقد غاب عنه نصفُ الوجود فى مشكلته ؛ ولو أن عقله أبصر من الناحيتين لما رأى المشكلة خالصةً فى إشكالها ، ولوجد فى ناحيتها الأخرى حظًّا لنفسه قد أصابه ، ومذهباً فى السلامة لم يخطئه ؛ وكان فى هذه الناحية عذابُ الجنون لو عذبه الله به ، وكان يصبح أشقى الخلق لو رماه الله فى الجهة التى أنقذه منها ، فتهيأت له المشكلة على وجهها الثانى

ماذا أنت قائلٌ يا صاحب المشكلة لو أن زوجتك هذه المسكينة المظلومة التى بنيتَ بها ، كانت هى التى أُكرهت على الرضى بك ، وحُملت على ذلك من أبيها ، ثم كنت أنت لها عاشقاً ، وبها صبًّا ، وفيها مُستَهدفاً ؛ ثم كانت هى تحب رجلا غيرك ، وتصبو اليه ، وتفتتن به ، وقد احترقت عشقاً له ؛ فاذا جَلَوها عليك رأتك البغيضَ المَقِيت ، ورأتك الدميمَ الكريه ، وفزعت منك فزعها من اللص والقاتل ؛ وتمدُّ لها يدك فتتحاماها تحاميها المجذوم أو الأبرص ، وتكلمها فتُحَمُّ برداً من ثقل كلامك ، وتفتح لها ذراعيك فتحسبهما حبلين من مشنقتين ، وتتحبَّب اليها فاذا أنت أسمجُ خلق الله عندها ، إذ تحاول فى نذالة أن تحل منها محل حبيبها ، وتُقبل عليها بوجهك فتراه من تقذُّرها إياك واشمئزازها منك وجه الذبابة مكبراً بفظاعة وشناعة فى قدر صورة وجه الرجل ليتجاوز حدَّ القبح إلى حدّ الفثائة ، إلى حد انقلاب النفس من رؤيته ، إلى حد التقيء إذا دنا وجهك من وجهها .... ؟ !

ماذا أنت قائلٌ يا صاحب المشكلة لو أن مشكلتك هذه جاءت من أن بينك وبين زوجتك الرجلَ الثانى لا المرأة الثانية ؟ ألست الآن فى رحمة من الله بك ، وفى نعمة كفَّت عنك مصيبة ، وفى موقف بين الرحمة والنعمة يقتضيك أن ترقب فى حكمك على هذه الزوجة المسكينة حكمَ الله عليك ؟

* * *

تقول : الحب والخيال والفن ، وتذهب فى مذاهبها ؛ غير أن « المشكلة » قد دلت على أنك بعيدٌ من فهم هذه الحقائق ، ولو أنت فهمتها لما كانت لك مشكلة ولاحسبت نفسك منحوس الحظ محروماً ، ولا جهلت أن فى داخل العين من كل ذى فنّ عيناً خاصةً بالأحلام كيلا تعمى عينُه عن الحقائق

الحب لفظ وهمىّ موضوع على أضداد مختلفة : على بركان وروضة ، وعلى سماء وأرض ، وعلى بكاء وضحك ، وعلى هموم كثيرة كلها هموم ، وعلى أفراح قليلة ليست كلها أفراحاً ؛ وهو خداعٌ من النفس يضع كل ذكائه فى المحبوب ، ويجعل كل بلاهته فى الحب ، فلا يكون المحبوب عند محبه إلا شخصاً خيالياً ذا صفة واحدة هى الكمال المطلق ، فكأنه فوق البشرية فى وجود تام الجمال ولا عيب فيه ، والناس من بعده موجودون فى العيوب والمحاسن

وذلك وهم لا تقوم عليه الحياة ولا تصلح به ، فانما تقوم الحياة على الروح العملية التى تضع فى كل شيء معناه الصحيح الثابت . فالحب على هذا شيء غير الزواج ، وبينهما مثل ما بين الاضطراب والنظام ؛ ويجب أن يُفهم هذا الحبُّ على النحو الذى يجعله حباً لا غير ، فقد يكون أقوى حب بين اثنين إذا تحابا هو أسخف زواج بينهما إذا تزوجا

وذو الفن لا يفيد من هذا الحب فائدته الصحيحةَ إلا إذا جعله تحت عقله لا فوق عقله فيكون فى حبه عاقلاً مجنون لطيف ... ويترك العاطفة تدخل فى التفكير وتضع فيه جمالها ونورَها وقوتها ؛ ومن ثم يرى مجاهدةَ اللذة فى الحب هى أسمى لذاته الفكرية ، ويعرف بها فى نفسه ضرباً إلهياً من السكينة يوليه القدرةَ على أن يقهر الطبيعةَ الانسانية ويصرِّفها ويُبدعَ منها عملَه الفنىَّ العجيب

وهذا الضربُ من السموّ لا يبلغه إلا الفكرُ القويُّ الذى فاز على شهواته وكبَحها وتحملها تتلى فيه غليانَ الماء فى المِرْجل ليخرج منها ألطف ما فيها ويحوِّلها حركة فى الروح تنشأ منها حياةُ هذه المعانى الفنية ؛ وما أشبه ذا الفن بالشجرة الحية ، إن

لم تضبطْ ما فى داخلها أصحّ الضبط لم يكن فى ظاهرها إلا أضعفُ عملها

ومثل هذا الفكر العاشق يحتاج إلى الزوجة حاجتَه إلى الحبيبة ، وهو فى قوته يجمع بين كرامة هذه وقُدْسية هذه لأن إحداهما توازن الأخرى ، وتُعدّلها فى الطبع ، وتخفف من طغيانها على الغريزة ، وتُمسك القلب أن يتبدّد فى جوه الخيالى

* * *

والرجلُ الكاملُ المفكر المتخيل إذا كان زوجاً وعشق ، أو كان عاشقاً وتزوج بغير من يهواها استطاع أن يبتدع لنفسه فناً جميلاً من مسرات الفكر لا يجده العاشق ولا يناله المتزوج ، وإنه ليرى زوجته من الحبيبة كالتمثال جمد على هيئة واحدة ، غير أنه لا يُغفل أن هذا هو سرّ من أسرار الابداع فى التمثال إذ تلك هيئةُ استقرار الأسمى فى سموه ؛ فان الزوجة أمومةٌ على قاعدتها وحياةٌ على قاعدتها ؛ أما الحبيبة فلا قاعدة لها ، وهى معان شاردةٌ لا تستقر وزائلةٌ لا تثبت ، وفنها كله فى أن تبقى حيث هى كما هى ، فجمالها يحيا كل يوم حياةً جديدة ما دامت فناً محضاً وما دام سرُّ أنوثتها فى حجابه

ومتى تزوج الرجل بمن يحبها انهتك له حجاب أنوثتها فبطل أن يكون فيها سر ، وعادت له غيرَ من كانت ، وعاد لها غير من كان ؛ وهذا التحول فى كل منهما هو زوالُ كل منهما من خيال صاحبه ؛ فليس يصلح الحب أساساً للسعادة فى الزواج ، بل أحْرِ به إذا كان وجداً واحتراقاً أن يكون أساساً للشؤم فيه ، إذ كان قد وضع بين الزوجين حداً يعين لهما درجةً من درجة فى الشغف والصبابة والخيال ، وهما بعد الزواج متراجعان وراء هذا الحد ما من ذلك بد ، فان لم يكن الزوجُ فى هذه الحالة رجلاً تام الرجولة — أفسدت الحياةَ عليه وعلى زوجته صبيانيةُ روحه فالتمس فى الزوجة ما لم يعد فيها ، فاذا انكشف له فراغها ذهب يلتمسه فى غيرها وكان بلاءً عليها وعلى نفسه وعلى أولاده قبل أن يولدوا ، إذ يضع أمام هذه المرأة أسوأ الأمثلة لأبى أولادها ويفسد إحساسها فيفسد تكوينها النفسىّ ؛ وما المرأة إلا حسها وشعورها [1]

* * *

فالشأن فى تمام الرجولة وقوتها وشهامتها وخلقها إن كان الرجل عاشقاً أو لم يكنه . وما من رجل قوىّ الرجولة إلا وأساسه ديانتُه وكرامتُه ؛ وما من ذى دين أو كرامة يقع فى مثل هذه المشكلة ثم تُظلم به الزوجة أو يَحيف عليها أو يُفسد ما بينه وبينها من المداخلة وحسن العِشْرة ، بَلْهَ أن يراها كما يقول صاحب المشكلة ( مصيبة ) فيُجافيها ويبالغ فى إعنائها ويشفى غيظه بإذلالها واحتقارها

وأى ذى دين يأمن على دينه أن يهلك فى بعض ذلك فضلا عن كل ذلك ؟ وأى ذى كرامة يرضى لكرامته أن تنقلب خسة ودناءةً ونذالةً فى معاملة امرأة هو لا غيرُه ذنبُها ؟ إن أساس الدين والكرامة ألا يخرج إنسان عن قاعدة الفضيلة الاجتماعية فى حل مشكلته إن تورط فى مشكلة ؛ فمن كان فقيراً لا يسرق بحجة أنه فقير ، بل يكد ويعمل ويصبر على ما يعانيه من ذلك ؛ ومن كان محباً لا يَستَزِلّ المرأة فيسقطها بحجة أنه عاشق ؛ ومن كان كصاحب المشكلة لا يظلم امرأته فيمقتها بحجة أنه يعشق غيرها ؛ وإنما الانسان من أظهر فى كل ذلك ونحو ذلك أثرَه الانسانى لا أثره الوحشىّ ، واعتبر أموره الخاصة بقاعدة الجماعة لا بقاعدة الفرد . وإنما الدين فى السمو على أهواء النفس ؛ ولا يتسامى امرؤٌ على نفسه وأهواء نفسه إلا بانزالها على حكم القاعدة العامة ، فمن هناك يتسامى ، ومن هناك يبدو علوُّه فيما يبلغ إليه ... ...

وإذا حل اللص مشكلتَه على قاعدته هو فقد حلّها ، ولكنه حلٌّ يجعله هو بجملته مشكلة للناس جميعاً حتى ليرى الشرع فى نظرته إلى إنسانية هذا اللص أنه غير حقيق باليد العاملة التى خلقت له فيأمر بقطعها .

وعلى هذه القاعدة فالجنس البشرىُّ كله بمنزل منزلة الأب فى مناصرته لزوجة صاحب المشكلة والاستظهار لها والدفاع عنها ما دام قد وقع عليها الظلم من صاحبها ، وهذا هو حكمها فى الضمير الانسانى الأكبر وإن خالف ضمير زوجها العدوّ الثائر الذى قطعها من مصادر نفسه وموادها . أما حكم الحبيبة فى هذا الضمير الانسانى فهو أنها فى هذا الموضع ليست

(١) هذا كله من بعض الحكمة فى أن الاسلام لا يبيح اختلاط الزوجين قبل العقد إذ لا يعرف الدين الاسلامى من الزوجين إلا أسرة يجب أن تبنى بما يبنيها ، وتصان بما يصونها ، وقد أشرنا إلى حكمة أخرى فى المقالة الأولى من المشكلة

حبيبة ولكنها شحّاذة رجال ... ... ...

* * *

لسنا ننكر أن صاحب هذه المشكلة يتألم منها ويتلذع بها من الوقدة التي في قلبه ؛ بيد أننا نعرف أن ألم العاقل غير ألم المجنون وحزن الحكيم غير حزن الطائش ؛ والقلب الانساني يكاد يكون آلةً مخلوقةً مع الانسان لاصلاح دنياه أو إفسادها ، فالحكيم من عرف كيف يتصرف بهذا القلب في آلامه وأوجاعه ، فلا يصنع من ألمه ألماً جديداً يزيده فيه ، ولا يُخرج من الشر شراً آخر يجعله أسوأ مما كان . وإذا لم يجد الحكيم ما يشتهي أو أصاب مالا يشتهي استطاع أن يخلق من قلبه خلقاً معنوياً يُوجِدُه الغنى من ذلك المحبوب المعدوم ، أو يوجده الصبر عن هذا الموجود المكروه ، فتتوازن الأحوال في نفسه وتعتدل المعاني على فكره وقلبه . وبهذا الخلق المعنوي يستطيع ذو الفن أن يجعل آلامه كلها بدائع فن [1] وما هو فكر الحكماء إلا أن يكون مصنعاً ترسل اليه المعاني بصورة فيها الفوضى والنقصُ والألم ، لتخرج منه في صورة فيها النظام والحكمة واللذة الروحية

يعشق الرجلُ العامي المتزوج ، فاذا الساعة التي أوْبَقَتْه في المشكلة قد جاءته معها بطريقة حلها ؛ فاما ضَرَب امرأته بالطلاق ، وإما أهلكها باتخاذ الضرة عليها ، وإما عذبها بالخيانة والفجور ، لأن بعض العبث من الطبيعة في نفس هذا الجاهل هو بعينه عبثُ الطبيعة بهذا الجاهل في غيره ، كأن هذه الطبيعة تطلق مدافعَها الضخمة على الانسانية من هذه النفوس الفارغة . . .

وليس أسهل على الذكر من الحيوان أن يحل مشكلة الأنثى حلاً حيوانياً كحل هذا العامي ، فهو ظافر بالأنثى أو مقتول دونها مادام مطلقاً مخلىً بينه وبينها . والحقيقة هنا حقيقته هو والكون كله ليس إلا منفعة شهوانية ؛ وأسمى فضائله ألا يعجز عن نيل هذه المنفعة

ثم يعشق الرجل الحكيم المتزوج فاذا لمشكلته وجهٌ آخر ، إذ كان من أصعب الصعب وجود رجل يحل هذه المشكلة برجولة ، فان فيها كرامة الزوجة وواجب الدين وفيها حق المروءة ، وفيها مع ذلك عبثُ الطبيعة وخداعها وهزلها الذي هو أشدُّ الجِد بينها وبين الغريزة . وبهذا كله تنقلب المشكلةُ الى معركة نفسية لا يحسمها إلا الظفر ولا يعين عليها إلا الصبر ، ولا يفلح في سياستها إلا تحملُ آلامها ، فاذا رُزق العاشق صبراً وقوةً على الاحتمال فقد هان الباقي ؛ وتيسرت لذةُ الظفر الحاسم ، وإن لم يكن هو الظفر بالحبيبة ، فان في نفس الانسان مواقع مختلفة وآثاراً متباينة للذة الواحدة ، وموقع أرفع من موقع ، وأثرٌ أبهج من أثر ؛ وألذُّ من الظفر بالحبيبة نفسها عند الرجل الحكيم الظفر بمعانيها ، وأكرمُ منها على نفسه كرامة نفسه . وإذا انتصر الدين والفضيلة والكرامة والعقل والفن ، لم يبق لخيبة الحب كبيرُ معنى ولا عظيم أثر ، ويتوغّل العاشقُ في حبه وقد لَبِسَتْه حالة أخرى كما يكظم الرجلُ الحليم على الغيظ ، فذلك يحب ولا يطيش ، وهذا يغتاظ ولا يغضب . والبطل الشديدُ البأس لا ينبغ إلا من الشدائد القوية ، والداهية الأريب لا يخرج إلا من المشكلات المعقدة ، والتقيّ الفاضل لا يعرف إلا بين الأهواء المستحكمة . ولعمري إذا لم يستطع الحكيم أن ينتصر على شهوة من شهوات نفسه أو يُبطل حاجةً من حاجاتها فماذا فيه من الحكمة وماذا فيه من النفس ؟

* * *

وما عقّد (المشكلة) على صاحبها بين زوجته وحبيبته إلا أنه بخياله الفاسد قد أفسد القوةَ الصالحةَ فيه ، فهو لم يتزوج امرأته كلها ... وكأنه لا يراها أنثى كالنساء ، ولا يبصر عندها إلا فروقاً بين امرأتين : محبوبة ومكروهة ، وبهذا أفسد عينَه كما أفسد خياله ؛ فلو تعلم كيف يراها لرآها ، ولو تعوّدها لأحبها انه من وهمه كالجواد الذي يشمر بالقادة في عنقه ؛ فشعوره بمعنى الحبل وإن كان معنى ضئيلا عطّل فيه كل معاني قوته ، وإن كانت معانيَ كثيرة . وما أقدرَك أيها الحب على وضع حبال الخيل والبغال والحمير في أعناق الناس . ! .

* * *

وقد بقي أن نذكر توفية للفائدة أنه قد يقع في مثل هذه المشكلة من نقصت لُحُولتُه من الرجال فيدلس على نفسه بمثل هذا الحب ويبالغ فيه ويتجرّم على زوجته المسكينة التي ابتليت به ،

(١) استوفينا هذه المعاني في كثير مما كتبنا وبعضها في مقالات ( الجمال الباقي ) ... ... ...